(١٣)
اختفاء النديـــم

اختفى النديم على أمل التوجه إلى الحامية المصرية فى دمياط- وهى التى رفض قائدها عبد العال حلمى التسليم للإنجليز فى أول الأمر أو السفر إلى بلاد الشام ومنها إلى أوروبا لمواصلة الجهاد، وكان نجاحه فى الاختفاء دليلا على مهاراته وذكائه، فبعد أن عاد من كفر الدوار إلى القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ذهب إلى داره بجهة العشماوى ليلا وفى الصباح أخذ ما خف حمله وخرج مع والده وخادمه وركبوا عجلة متجهين إلى بولاق، وهناك ودعه أبوه حيث ركب النديم وخادمه إلى القناطر الخيرية قاصدا دار أحد أصدقائه فأقام بها عشرة أيام تمكن خلالها من تغيير زيه الإفرنجى بثوب من الصوف الأحمر الخشن

الذى يلبسه مشايخ الطرق الصوفية ويعرف باسم " الزعبوط " وتعمم بعمامة حمراء وغطى عينيه بغطاء وأمسك بيده عكازا طويلا وأطال لحيته وأخفى شاربه فصار لا يعرفه حتى أقرب الناس إليه ثم سار بخادمه ليلا إلى الساحل فوجدا سفينة شراعية مقلعة إلى بنها فركباها ، وتظاهر النديم بأنه من مشايخ الطرق الصوفية فلم يلحظه أحد بل استضافه ملاحو السفينة تبركا به ولما اقتربت السفينة من بنها أغلق الكوبرى فأحس النديم بأن رجال البوليس سيفتشون السفينة فأخذ فى ذكر الله والتمتمة على حبات المسبحة وزاد فى تنكره فلم يشك أحد فى أمره ، وبعد انصراف رجال البوليس انتقل النديم إلى سفينة أخرى كانت فى طريقها إلى دمياط لكى ينضم إلى عبد العال حلمى ولكنه علم أن حاميتها سلمت للإنجليز فاضطر النديم إلى تغيير خطته وألهمه وعيه إلى أن يمضى إلى وسط جموع الفلاحين لحمايته من عيون الخديو والإنجليز فقصد ميت غمر ثم استأنف المسير منها بحرا إلى ميت النصارى ، وفى الصباح ركب مركبا إلى المنصورة ومكث مع خادمه فى مسجد الموافى بها ثلاثة أيام استضافه فيها الأهالى تبركا به ثم سافر هو وخادمه إلى(منية الغرقى) اسمها الحالى (ميت الغرقا) قاصدا صديقا أزهريا له اسمه الشيخ سعيد فكتم سره وأكرم وفادته ولم يضع النديم فى حسبانه البقاء عنده

طويلا حيث كان عازما على السفر إلى بلاد الشام ومنها إلى أوروبا .

وكان بالقرية وقتئذ أحد مشايخ الطرق الصوفية المشهورين وهو الشيخ " شحاتة القصبى" وكان النديم من مريديه فأرسل إليه يخبره بمكانه ، وكان لهذا الشيخ أتباع كثيرون يأمرهم فيطيعون ويدعوهم فيستجيبون ، ولما علم الشيخ بعزم النديم على اللجوء إلى بلاد الشام طلب منه التستر وعدم الخروج من البلاد حتى يقضى الله تعالى بالفرج . وقد كان الشيخ محقا فيما قاله ، فقد قبض على كل من فر من زعماء الثورة إلى الخارج .

أشرف الشيخ شحاتة القصبى والشيخ سعيد الأزهرى على تدبير أماكن لإبعاد النديم عن عيون الحكومة ، كما اختارا بعض الأشخاص موضع الثقة لمساعدة النديم فى محنته وإبلاغه بتحركات رجال السلطة ضده أولا بأول ، كما اتفق الشيخ سعيد الأزهرى مع النديم على وضع رموز للمراسلة بينهما حتى لا يعرف مكانه أحد لو عثر على شىء من المكاتبات بينهما .

ظل النديم مختفيا فى بيت صديقه الأزهرى نحو شهر اضطربت خلاله أعصاب خادمه الذى ضاق ذرعا بالاختفاء ، وأخذ يبكى طالبا العودة إلى أهله ، ولما خشى النديم من افتضاح أمره دبر له حيلة تدل على سعة الأفق ، فاشترى الجريدة الرسمية

وأخذ يتفحص فيها باهتمام - وكان الخادم أميا - ثم أظهر الجزع والتأسف وضرب كفا بكف وقال "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم" ولما استفسر منه الخادم عما قرأ قال: "إن الحكومة قد جعلت لمن يرشد إلىّ ألف جنيه ولمن أتاها برأسك خمسة آلاف، فخاف الخادم وأخذ يبالغ فى التنكر زيادة عن سيده، كما غير النديم اسم الخادم من "حسين" إلى "صالح" حتى يكتمل تنكره.

شعر النديم بقسوة الاختفاء وزاد من وحشته المكان المظلم الرطب الذى اختفى فيه فلم يعرف الليل من النهار، ولم يتمكن من الكتابة أو القراءة إلا على ضوء مصباح صغير من الغاز كثير الدخان ومع ذلك فكر فى التأليف حتى يشغل وقته، ولكن صديقه المتستر عليه نصحه بتأجيل ذلك حتى تتحسن الأحوال. فانصرف النديم عن الكتابة وأخذ فى تعليم خادمه "القراءة والكتابة وحفظه جملة سور من القرآن الكريم وقد نجح فى ذلك.

ولما تطاير خبر مكان اختفاء النديم إلى الحكومة أرسل إليه الشيخ شحاتة القصبى خطابا مع الشيخ محمد الهمشرى عمدة "العتوة القبلية" وكان أحد مريديه يقول له فيه: "قم معه ولا تبرح من عنده حتى يأتيك إذنى ولى ثقة عظيمة لتقواه وحسن صلاحه وقوة يقينه ولطف سيرته".

فخرج النديم مع الهمشرى إلى بلدته، ولم تمض بضع ساعات على مغادرته للمخبأ حتى اقتحمت الشرطة الدار وفتشتها ولكن النديم كان قد سبقهم.

نزل النديم ضيفا على الشيخ الهمشرى، وأقام فى داره نحو ثلاث سنوات فأكرمه وآواه ولم يبلغ أحدا من أفراد أسرته به سوى زوجته، وفى منزل الهمشرى أحس النديم بالفراغ والوحدة وانتابته الوساوس والأوهام، وفكر فى شغل وقته بالتأليف والكتابة ووجد فى صديقه الشيخ " سعيد الأزهرى معينا على إمداده بالكتب والمراجع وما يحتاج إليه، كما أخذ يصنع الحبر من هباب الفرن، وبدأ يفكر فى خطة للكتابة واستقر رأيه على كتابة مؤلف بعنوان " كان ويكون" وبعد أن كتب المقدمة تذكر صديقا فرنسيا كان قد عرفه من قبل بالإسكندرية ويمتلك ضيعة قريبة من مخبئه ففكر فى الكتابة إليه لعله يجد عنده ما يساعد على ما شرع فيه ولما علم بذلك الشيخ الهمشرى فزع وحاول أن يثنى النديم عن عزمه ولكن النديم طمأنه بقوله: "لا تخش شيئا فإنى واثق بذمته وعلو همته" وبعد تردد الشيخ الهمشرى نحو ساعتين حمل رسالة النديم إلى الفرنسى فقرأها ثم أعطاها لزوجته فقرأتها ثم أعادتها إليه فمزقها زيادة فى الحذر ثم حضر متخفيا إلى مكان النديم الذى أخبره بنيته على الكتابة

والتأليف وطلب منه المساعدة وإحضار بعض الكتب التاريخية للاستعانة بها ، ثم تناقشا فى خطة الكتابة وانتهيا بأن توضع على هيئة أسئلة وأجوبة فى المشكلات الدينية والخلافات السياسية بين الشرق والغرب على أن يقدم الفرنسى الأسئلة ويجيب النديم عليها وبعد ذلك يقوم النديم "بسرد تاريخ مصر سردا مرسلا أخذ الفرنسى يزور النديم على فترات متقاربة وكان يحضر زوجته أحيانا معه لتشترك فى المناقشة وتسهم بآرائها فيها كما كان يحضر هذه المناقشة أحيانا " سعيد الأزهرى " صديق النديم وكانت تطول المناقشة أحيانا ويسهم كل منهم بآرائه فيها ، وعندما تنتهى المقابلة يخلو النديم إلى نفسه ويسجل ما دار من حديث ثم يعرضه بعد ذلك عليهم قبل الخوض فى غيره .